هاربٌ إلي الغاب

عندما ماتت ابنة الفنان الرومانسى الفرنسى العظيم فيكتور هيجو ، أحس الفنان بالحزن ، وأحس بأن الغربة القاسية عن هذا العالم تعتصر قلبه ، ولم تستطع كلمات العزاء أن تخفف عنه شعوره الحزين المرير ...

وأخيرًا وجد العزاء يقبض على قلبه لا من ألسنة الناس ولكن من لسان آخر هو لسان الطبيعة. لقد خرج (هيجو) إلى الغابات والحقول ، وتأمل الليل والقمر والنجوم ، ثم كتب قصيدة رائعة أملتها عليها رؤاه وهو يتجول فى عالم الطبيعة ، يمزج روحه بمظاهرها المختلفة ... ويقول فى هذه القصيدة :

(الآن وقد نأت عن عينى باريس : شوارعها وقصورها وضبابها وسطوحها . الآن بين أفنان الأشجار أستطيع أن أفكر فى جمال السماوات ، الآن فى ظلمة الحداد التى ملأت نفسى أخرج ظافرًا شاحب اللون ، وأحس بسلام الطبيعة الجليلة يتسلل إلى قلبى . الآن وأنا جالس على الشط ذى الأمواج ، مروعًا بهدوء الأفق وجلاله ، أستطيع أن أثير فى نفسى الحقائق العميقة ، وتأمل الزهور بين الأعشاب ... الآن وأنا ضعيف ضعف المرأة ، أسجد بين يديك يا إلهى وتحت سماواتك الصافية وقد أضاءت روحى فى بلواها نظراتى إلى عالمك من حولى (1)) .

هذه النظرة المتصوفة نحو الطبيعة ، هى نظرة الرومانسيين ... إنهم يهربون

---

(1) ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه " الرومانتيكية " .

من زحام الحياة ، وزحام العلاقات الإنسانية ليعيشوا فى وحدة عميقة مع نفوسهم ، يتأملون ويفكرون ، ويجدون العزاء عن عذابهم وضيقهم بالحياة ، بل يجدون المعنى الصحيح للحياة ، إن الطبيعة هى معبد الرومانسى ، وهى سعادة روحه ، وخلاصه من عذابه وألمه ... ولقد دعا أبو الرومانسية الأوروبية جان جاك روسو للعودة إلى الطبيعة وعبادتها ، ففى الطبيعة توجد الفطرة الإنسانية بدون تشويه ولا تكلف ، لأن الطبيعة ترفض الاصطناع والحذلقة ، وفى أحضان الطبيعة تصفو النفس البشرية وتعود إلى شعورها الصحيح السليم بالحياة .

وقد ربط بعض النقاد بين الدعوة إلى عبادة الطبيعة والدعوات السياسية الثورية التى انطلقت فى الغرب على أثر ظهور الحركة الرومانسية ، فحب الطبيعة خلق نوعًا من الوعى والانتباه إلى أكبر عابد مترهب فى محراب الطبيعة وهو : الفلاح ، فالفلاح هو الذى يعيش فى الحقول ، ويزرع القمح والورد ، وكان الفلاح قبل الثورة الفرنسية فى المجتمع ، وقبل الثورة الرومانسية فى الأدب ، ضائعًا بلا حقوق ، وكان النظام الذى تخضع له الأرض هو الإقطاع ، أى ملكيات كبيرة من الأرض يسيطر عليها بمن فوقها من المزارعين والفلاحين مجموعة قليلة من الأفراد ، ولكن الاهتمام بالطبيعة فى الأدب الرومانسى أبرز شخصية الفلاح وساعد على الخطوات التى خطتها الثورة الفرنسية وحطمت بها الإقطاع لا فى فرنسا وحدها بل فى أوروبا كلها تقريبًا .

فالطبيعة بالنسبة للرومانسيين كانت اكتشافًا اهتموا به اهتمامًا كبيرًا وكان هذا الاهتمام بالطبيعة سببًا من أسباب الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى الشامل فى حياة الفلاح ، كذلك كان هذا الاهتمام بالنسبة للرومانسيين طريقًا للخلاص من الألم ، وكان عزاء للنفس الرومانسية الرقيقة الخيالية التى تفزعها مأساة الحياة وأحزانها .

وأبو القاسم الشابى شاعر رومانسى أصيل ، ولذلك فنحن نجد أن الطبيعة تحتل فى شعره مكانة هامة بارزة ، إنها الأم الحانية ، والملجأ الأول والأخير ... وقد كان الشابى بحاجة إلى أم تحنو عليه وبحاجة إلى ملجأ يؤويه ، ذلك لأنه كان على خلاف حاد مع الحياة الواقعية ، وكان يعيش فى خصومة عميقة مع المجتمع ، وكان طموحًا إلى حياة أكثر حرارة ويقظة بين جميع أبناء شعبه ، وكان فوق هذا كله مريضًا بقلبه ، يزحف الموت إلى حياته لحظة بعد لحظة ، وكان يحس بأن رغبته فى الحياة مهددة دائمًا بقوة الموت الزاحف إليه ... كل هذه الأسباب جعلته حزينا ، ودفعته إلى البحث عن عالم يذوب فيه بشخصه وأحاسيسه وأفكاره ، فيخفف عنه ، ويرفعه إلى شعور جديد بحيث يجد فى الألم لذة ، وفى متاعب الحياة اليومية شيئًا صغيرًا يتضاءل أمام الشعور السامى الذى يعيش فيه .

وفى الطبيعة وجد الشابى عالمه الجميل النقى ، كما وجد (هوجو) من قبل عزاءه وخلاصه بعد موت ابنته ـــ فى الطبيعة . وفى قصيدة الشابى المشهورة (النبى المجهول) يعبر الشابى عن أزمته مع شعبه ، حيث لا يفهمه الشعب ، ولا يستجيب لأفكاره وآرائه التى تهدف إلى تحريره المعنوى والمادى ... عندما تصل به الأزمة إلى أعلى درجاتها لا يجد ملجأ سوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة كما يقول فى قصيدة (النبى المجهول) :

إننى ذاهب إلى الغاب يا شعبى أقضى الحياة وحدى بيأسى

وعندما تنتهى حياته ويموت ، فهو يفضل الموت فى الغاب ، فالغاب بما فيه من طيور وأشجار أحنى عليه من الناس :

ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـــو تخط السيول حفرة رمـــســـى
وتظل الطيور تلغو على قبرى ويشدو النسيم فوقى بهمـــسِ
وتظل الفصول تمشى حـــوالى كما كن فى غضارة أمـــســـى

فالشابى يجد خلاصة الروحى فى الطبيعة ، ولذلك فهـــو يعـــيش بخيالـــه وحواسه ومشاعره كلها فى الطبيعة ، ويستمد صوره الفنية من الطبيعة قبـــل أن يستمدها من أى شىء آخر .

والطبيعة عند الشابى خير مطلق وجمال مطلق ، وكأنه بهذا الإحساس نحو الطبيعة يجعل منها عالمه (المثالى) الكامل الذى (يعوضه) عن العالم الـــواقعى الناقص المليء بالشر والقبح والحزن ، فإذا كان قد فقد الأصدقاء فسوف يجد الصداقة والفهم عند الطيور .

سوف أتلو على الطيور أناشيدى وأفضى لهـــا بأشـــواق نفـــسى
فهى تدرى معنى الحياة وتـــدرى أن مجد النفـــوس يقظـــة حـــس

فالطيور عنده تدرى معنى الحياة الذى لا يدريه أبنـــاء مجتمعـــه ويقظـــة الإحساس التى تفهمها الطيور لا يفهمها البشر الذين يعيشون حولـــه ... إن (يقظة الإحساس) عند الشابى هى جوهر الحياة .

وهكذا ، فكل المعانى التى فقدها فى الحياة مع الناس وجدها فى الطبيعـــة : الصداقة والفهم والحب والحنان والجمال . إن الطبيعة هى عالمه المثالى الـــذى يرد به على نقص الحياة الاجتماعية وقصورها عن الوصول إلى الكمال .

على أن أهم ظاهرة فى شعر الطبيعة عند الشابى هى أنه أعطى للطبيعة (معنى إنسانيًا) ، وهذه الظاهرة لا ينفرد بها الشابى فهى تتكرر كثيرًا عند كبار الشعراء الذين عبروا عن الطبيعة أو صوروها فى شعرهم ، ولقد كان الشابى واحدًا من هؤلاء ... لم يكن يحب الطبيعة المجردة ، ولم يكن يجد فيها جمالاً خاصا مستقلاً عن الإنسان ، بل إن كل جمال فى الطبيعة إنما يستمد وجوده من (معنى إنسانى) ، وهذه الظاهرة تثبت ما أشرنا إليه من أنه كان يبحث فى الطبيعة عن الجمال والكمال المفقودين فى المجتمع والحياة الإنسانية التى يعيشها . فقد اقتنع بخياله وإحساسه الحاد أن الطبيعة (مجتمع) آخر متناسق يقوم على أساس من نفس المشاعر التى تقوم عليها الحياة الإنسانية . والطبيعة هنا تنطق بلسان الشابى وتقول كل ما آمن به من أفكار ، وكل ما امتلأ به قلبه من عواطف وأحاسيس . فالحبيبة فى قصيدة (صلوات فى هيكل الحب) عذبة (كالورد ، كالصباح الجديد ، كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء) ... وفى نفس القصيدة يخاطب الشابى حبيبته بمثل هذه الصور المستمدة من الطبيعة أيضًا : (أنت فجر من السحر) (أنت روح الربيع) ... كلها صور مستمدة من الطبيعة ، ولكن لتوضيح عاطفة إنسانية وجمال إنسانى ، لتوضيح عاطفة الحب وجمال المرأة المحبوبة .

وفى قصيدة (قلب الأم) عندما يموت الطفل تذوب روحه فى كل مظاهر الطبيعة ، وتنظر الأم المحزونة هنا وهناك ، فترى صورة ابنها وصوت ابنها وروح ابنها ، ترى هذا كله لأن ابنها لم يدفن فى قبر بل انساب فى الأزهار والأشجار وأصوات الطيور :

ويراك فى صور الطبيعة : حلوها ودميمها
وحزينها وبهيجها ، وحقيرها وعظيمها

فى رقـــة الفجـــر الوديـــع ، وفى الليـــالى الحالمـــة
فى فتنـــة الـــشفق البـــديع وفى النجـــوم الباسمـــة
فى رقـــص أمـــواج الـــبحيرة تحـــت أضـــواء النجـــوم
فى سحـــر أزهار الربيـــــع ، وفى تهاويـــل الغيـــوم

وهكذا ترتبط الطبيعة بعاطفة الأم نحو ابنها ، وبذلك تأخذ الطبيعة معـــنى إنسانيًا واضحًا ، وفى الوقت نفسه تصبح عاطفة الأم ثابتة خالدة مثل مظاهر الطبيعة نفسها .

وفى قصيدة (إرادة الحياة) ينادى الشابى الـــشعب ويـــدعوه إلى اليقظـــة والثورة ، ثم يجعل الطبيعة تنطق بأفكاره فيقول على لسان الريح :

ودمدمت الريح بين الفجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا مـــا طمحت إلى غـــاية ... ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنـــب عبـــور الشعاب ... ولا كبة اللهب المســـتعـــر
(ومن لا يحب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفـــر

فالريح تدعو إلى الثورة وتحدد للناس طريق الثورة الذى هو طريق الخطـــر ونسيان الحذر وخوض اللهب ، وفى نفس القصيدة يصور الـــشابى الأرض فى حالة شوق وظمأ إلى الحياة ثم يأتى (الربيع) فتتفجر الكائنـــات ، وينـــشق التراب عن كثير من مظاهر الحياة ، وكأن الربيع الذى ملأ الأرض هو الثورة التى يدعو إليها الشابى مجتمعه ، ليتحرر هذا المجتمع من جدبه ويصبح مجتمعًـــا خصبًا مليئًا بمظاهر الحياة ، مثل الأرض فى الربيع .

يقول الربيع للحياة فى نداء حار جميل يوجهه إلى الأرض :

إليك الفضاء ، إليك الثرى الحالم المزدهر
إليك الجمال الذى لا يبيد ؛ إليك الوجود الرحيب النضر
فميدى كما شئت فوق الحقول ، بحلو الثمار وغض الزهر
وناجى النسيم ، وناجى الغيوم ، وناجى النجوم ، وناجى القمر
وناجى الحياة وأشواقها ، وفتنة هذا الوجود الأغر

وتستجيب الأرض لثورة الربيع ، وهى الثورة التى يتمنى الشابى أن يتعلم منها المجتمع ، إنه درس تلقيه الطبيعة على الحياة الإنسانية ، وعلى الناس : أن يتعلموا معنى الثورة من الأرض والربيع ... من الطبيعة !

هناك قصيدة أخرى للشابى تعتبر من أهم قصائده هى قصيدة (جنة الضائعة) وتلك هى جنة طفولته التى كانت مليئة بالبراءة والعذوبة والتى أضاعتها الحياة وسلبتها منه ، وهو يرسم سعادة الطفولة فى تلك العلاقة القوية بين الطفولة والطبيعة ، فالطفولة فطرة نقية ، وهما مثال خالص للجمال .

إنه يذكر هذه الطفولة :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وبحر شاطئه المنير
وداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الأنيق وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور

وبنـــاء أكـــواخ الطفولـــة تحـــت أعـــشاش الطيـــور
مـــسقوفة بـــالورد ، والأعـــشاب ، والـــورق النـــضير
نـــبنى فتهـــدمها الريـــاح ، فـــلا نـــضج ولا نشـــور
ونعود نضحـــك للمـــروج وللزنابـــــق والغديـــــر

وتضيع منه جنته ويقابل الحياة العملية الشاقة ، فتسحق أحلامه، ويكتشف أن طبيعة الإنسان ليست هى الخير المطلق بل هى مزيج من الخـير والـشر ، وتصدمه هذه الحقيقة ، فقد كان يظن أن صورة الحياة والإنسان التى أحسها فى طفولته هى الصورة الواقعية التى سيقابلها بعد ذلـك فى مراحـل الحيـاة المختلفة ، ولكن صورة الطفولة كانت على العكس حلمًا وخيالاً بلا رصـيد فى دنيا الواقع ، وكانت النتيجة هى الصدمة النفسية التى أخذ يعانى منها حتى مات ... لقد ضاعت جنته وهو اليوم يعيش فى الجحيم :

واليـــوم أحيـــا مرهـــق الأعـــصاب مـــشبوب الـــشعور
متـــأجج الإحـــساس أحفـــل بـــالعظيم وبـــالحقير
تمـــشى علـــى قلـــبى الحيـــاة ، ويزحـــف الكـــون الكـــبير
هذا مصيرى ، يا بـــنى الدنيـــا ، فمـــا أشقـــى الـــمـــصـــير

وللشابى قصيدة أخـرى تعتـبر مـن قـصائده الهامـة أيـضًا هـى (من أغانى الرعاة) وفى هذه القصيدة يغنى للطبيعة بنفس طريقته ، فهو يضفى عليها طابعًا إنسانيًا، فالراعى يعيش مع خرافه فى عـالم مثـالى ، أو مدينـة فاضلة ، إنه يعيش فى الدنيا الجميلة التى لم يجدها الـشابى فى الواقـع ... إن الراعى يقول لخرافه :

لـــن تملـــى يـــا خـــرافى ، فى حمـــى الغـــاب الظليـــل
فزمـــان الغـــاب طفـــل ، لاعـــب ، عـــذب ، جميـــل
وزمـــان النـــاس شـــيخ ، عـــابس الوجـــه ، ثقيـــل
يتمشـــى فى مـــلال ، فـــوق هاتيـــك السهـــول

هذه هى المقارنة الأساسية الدائمة التى يعقدها الشابى بين الحياة الواقعية ، وبين حياة الطبيعة ، فعالم الناس أو زمانهم : (شيخ عابس الوجه ثقيل) أما عالم الطبيعة أو زمانها فهر (طفل ، لاعب عذب ، جميل) ... ولذلك فهو يختار الطبيعة ويعطيها كل حبه وإيمانه وينصرف عن عالم الناس ساخطًا عليه غـــير مقتنع ولا راض به .

تلك هى (النظرة الإنسانية) للطبيعة والتى يعبر عنها أبو القاسم الشابى فى شعره ، فالطبيعة تكتسب روعتها وقيمتها من الصلة بينها وبين الحياة الإنسانية فهو يهرب إليها لأنها تحتوى على الجمال والتناسق الذى لم يجـــده فى الحيـــاة الإنسانية ، وهى التى تحمل إلى قلب الأم الحنان والعزاء ، بعد أن مات الطفل ،واتحدت روحه البريئة مع مظاهر الطبيعة المختلفة ، والحب الأول للـــشاعر وهو حب الطفولة ، كان جنة شبيهة بروعة الطبيعة وسحرها ولكنه فقـــده الآن ، فهو بدون جنة وبدون حب ، وحتى معنى الثورة يجـــده شـــاعرنا فى الطبيعة ، فالطبيعة تثور على القفر والجدب والعقم ، وليس الربيع الذى يحمل الازدهار والاخضرار إلى الأرض ، والصفاء الجميـــل إلى الجـــو والـــسماء ، والحيوية والنشاط للفراشات والطيور ... ليس هذا الربيع إلا (ثورة الطبيعة) التى يجب أن يتعلمها الناس ، ويقلدوها تقليدًا أصيلاً حتى يتخلصوا من كـــل مظاهر الموت الذى تخلصت منه الطبيعة عندما تخلصت من العقم والجـــدب والقفر .

والراعى إنما هو إنسان مثالى ، يعيش فى وسط الطبيعة حياة سعيدة ، وليس هذا الراعى إلا المثل الأعلى للإنسان عند الشابى ، وليست الطبيعة سوى المثل الأعلى للمجتمع ..... فكأن الطبيعة) و (الراعى) هما مدينة أفلاطون الفاضلة ، أو جمهوريته المثالية ، حيث يقترح أفلاطون تعديل الحياة الاجتماعية والثورة على الواقع الإنسانى لتكميله من النقص الذى يعانيه ، ولإزالة معانى القبح والشر والضعف ، وتحقيق الجمال والخير والقوة .

تلك هى خلاصة نظرة شاعرنا للطبيعة ، وذلك هو سر حبه لها وهروبه إليها، ففيها الكمال الذى يحلم به ، والحنان الذى لم يجده فى المجتمع ، والثورة التى لم يقم بها الشعب ، والبراءة التى مزقها الواقع وأفسد معناها الجميل ، وفيها أخيرًا التناسق والحيوية ، وهما من أرقى الصور التى يحلم بها الشاعر للحياة ، ويحملها على الدوام فى قلبه الرقيق النبيل .